



الحج ومكة المكرمة في كتابات المكّيين (١)

أ. حسين محمد بافقيه

أ.د. أبو بكر أحمد باقادر

لكلّ مدينة مفتاح، و مفتاح مكة المكرمة الحجّ، الذي ربط بين المكان «مكة»

والزمان «الحج»، حيث يتمّ مقصدها استجابة لنداء إبراهيم عليه السلام:

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا

الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْنَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾^١

١. سورة إبراهيم : ٣٧ .

فالحجّ هو الشعيرة التي ارتبطت برحلة إبراهيم الخليل إلى مكة المكرمة، فلا يكاد يكون هناك مشعرٌ دينيٌّ إلاّ وله ارتباط بتلك الرحلة، التي جعلت مكة المكرمة، منذ وجدت، الحاضنة لبنيها، وللآخرين، فهي «أمّ القرى»، وأهلها جبيرة بيته الكريم، وهم «أهل الله».

وكما كان «الحج» مفتاح شخصية المدينة، فهو كذلك، مفتاح شخصية المكيين، على مرّ الأزمان، بدءاً من نداء إبراهيم عليه السلام، واستضافة السيدة هاجر وابنها إسماعيل عليهما السلام قبيلة جرهم، لتبدأ مسيرة هذه المدينة المقدّسة في قبول الآخر والانفتاح عليه، بل الدعوة إلى لقائه وحواره، وبدرجة رفيعة من التسامح والتعددية، التي تسمح لجميع الحجاج أن يجدوا فيها ما تعودوا عليه في بلدانهم من أساليب حياتهم الخاصّة، في المأكل والملبس، بل وأن يعيشوا في كنف من يعرف لغاتهم وطبائعهم وتصوراتهم، فكانت مكة المكرمة خلاصة العالم الإسلامي، ومظهر عبقريته الاجتماعية والثقافية.

واستطاعت مكة المكرمة - على الرغم من تمكينها كلّ عرق وثقافة من الاستمرار - الاحتفاظ بشخصيتها التي هي كلّ تلك الأنوال التي تكوّنت منها، وبخاطبة تُشعر الجميع بالمشاركة الفاعلة فيما يمكن عدّه «الثقافة المكيّة»، المنطلقة في أساسها من «شخصية المكان»، تلك الشخصية التي وجدت معها، منذ بدأ تاريخها، الذي كفل لأهلها تجاوز قسوة الجغرافيا، وصناعة الشخصية المكية التي ربطت الزمانيّ بالديني، وهياً لها أن تكون «لقاجاً»، حتى لو كان شرط بقائها التاريخي، هو انفتاحها على الآخر، وتحويلها إلى «رحم رمزي» لكلّ اللغات واللهجات والنظم الرمزية التي تنتمي إلى «المكان» وتستمدّ شخصيتها منه، ففي مكة لا يدهش أن تكون من أيّ قطر، ولا من أيّ عرق، أو ثقافة، فأنت مقبول سلفاً، فلعلّ مكة المكرمة أن تكون أقدم المدن التي استطاعت أن تقبل كلّ ألوان الطيف البشري والثقافي والاجتماعي.

في قصة قصيرة بالغة الرمزية، يصوّر الأديب والمورّخ والمطوّف المكّي أحمد سباعي،^١ قصة فتاة مكية جاء لخطبتها أحد الحجاج من جنوب شرق آسيا، وهذه الفتاة، التي لا نعرف عن شخصيتها شيئاً سوى أنّ اسمها «كدرجان»، فاتها قطار الزواج، فكانت تتطلع إلى عريس، يجمع إلى التديّن الجاه والمال والمكانة الاجتماعية، حتى وإن كان من مجتمع ناءٍ في أقصى الدنيا!

«ومضت الأيام قبل أن تستيقظ ذات صباح على من يطرق الباب. كانوا ضيوفاً من إندونيسيا قدموا إلى الحج من عامهم ذلك. رجلاً وامرأتين يحملون إليها رسالة من بعض أقرباء أبيها. فاستقبلتهم... وبعد أن تناولوا تحتهم قهوة و شايّاً شعرت أنّ عين الشابّ تسارقها النظر في لهفة، فلم تعلق كثيراً على هذا رغم أنها أنست ارتياحاً واستطاعت أن تغافله لتنام عدّة ثوان بين أهدايه.

ولم تمض إلاّ ساعات بعد وداع الضيوف حتى طرق الباب لتستقبل في هذه المرّة شيخة الحجاج جاءت تنقل إليها رغبة ضيوفها في طلب يدها لابنهم الشابّ الذي كان يصحبهم في زيارتها قبل ساعات.

...

ولكن الشيخة كانت شيخة في صرامتها فقد أهابت بها وهي تودعها:
«شوفي يا بنتي الولد بعد الحج يسافر بلده مع أمه وأخته اللي شفنتهم يأخذ رضا أبوه ويأخذ اللي فيه النصيب علشان المهر و اللي منه، و يجيكي راجع. أبوه يبغاه يدرس هنا ويبغاه يكمل دينه ويربط رجله...».

وتمضي القصة لتوضح أنّ الفتاة المكية باتت تنتظر عودة عريسها القادم من أقصى الدنيا، وظلّت تعد أشهر السنة؛ شهراً شهراً، ويأتي الموسم تلو الموسم، «ووقتانا تنتظر دون

١. حالي كدرجان، تهامة، ط ٢ (جدة: تهامة، ١٤٠١هـ / ١٩٨٠م، ص ١١ - ١٩)

أن تفقد الأمل!!

أليست هذه هي قصة مكة وعلاقتها مع حجاجها؟

الانتظار والترقب؟ والخوف من المستقبل؟ إلى أن يجين «الموسم» الجديد؟ ومن يمكن أن تكون «كدرجان» سوى مكة معشوقة المسلمين، الذين يتوجهون إليها في اليوم خمس مرّات، ويمتّون أنفسهم بزيارتها، ولو مرّة في العمر! ويبدلون في سبيل الجلوس إلى جوارها أعزّ ما يملكون، ويقاسون في سبيل التّظر إلى وجهها الجميل كلّ المشاق والصعاب، بل ويحلمون أن تختلط أجسادهم بصرّة طينتها المباركة، حتى لو غادروا الوطن، وتركوا وراءهم الأهل والولد!

إنّ الرمزية التي يشير إليها سباعي تصوّر بحقّ، كيف أنّ رحلة الحجّ هي رحلة عشق، كما يؤكّد ذلك عددٌ من الرحالة الفرس، فيما كتبه عن رحلة العمر، وهي رحلة فردية خاصّة، حتى وإن كانت رمزاً لتجمّع إسلامي عالمي؛ فلكلّ حاج ذكرياته الفريدة، ومكة المكرّمة قادرة على أن تكون الحِضن الذي يتّسع لجميع المحبين، والبيت الذي لا يقفل بابه في وجه قاصديه، وتظلّ أبد الدهر، منتظرة حجاجها وعمّارها، في ثنائية فريدة تحددها علاقة حاج بمدينة.

وقدر هذه المدينة المعشوقة أن تنتظر خطّابها، موسماً بعد موسم، وأن لا تشيب، ولا تشعر بامتداد العمر، لأنها تجددّ سحرها وجمالها كلّ موسم، في كامل زينتها وحنوانها وطهارتها، وقدر قاصديها أن تلهج قلوبهم بمآثرها، والشوق إليها، وكأنّ لسان حالهم ما سطره ابن بطوطة في عشق هذه البلدة المقدّسة:

«و من عجائب صنع الله تعالى أنه طبع القلوب على التروع إلى هذه المشاهد المنيفة، والشوق إلى المثول بمعاهدها الشريفة، وجعل حبّها متمكناً في القلوب فلا يحلّها أحدٌ إلاّ أخذت بمجامع قلبه ولا يفارقها إلاّ أسفاً لفراقها، متولّها لبعاده عنها، شديد الحنين إليها، ناوياً لتكرار الوفادة عليها، فأرضها المباركة نصب الأعين، ومحبتّها حشو القلوب حكمة من الله بالغة، وتصديقاً لدعوة خليله عليه السلام، والشوق يحضرها وهي نائية، ويمثلها وهي

غائبة، و هون على قاصدها ما يلقاه من المشاقّ ويعانيه من العناء، وكم من ضعيف يرى الموت عياناً دونها، وشاهد التلف في طريقها، فإذا جمع الله بها شمله تلقاها مسروراً مستبشراً كأنه لم يذق لها مرارة، ولا كابد محنة ولا نصباً...»^١.

أدّى قصد النَّاس مكة المكرمة، لغرض الحج، أن غدا الحج قوام حياة المكّيين والعامود الفقريّ لمعيشتهم، وكان ارتباط الحج دينياً بالعديد من المنافع، انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾^٢ سبباً في رواج التجارة و حركة البيع و الشراء في هذه المدينة المقدّسة، معظم السنة، خاصة أن حركة المواصلات قديماً، جعلت عدداً كبيراً من الحجاج، يقصدونها في وقت مبكرٍ عن الحج، و يكتنون فيها لزمن يزيد على سبعة أشهر، و هو ما يسمح بجعل مكة المكرمة، خلاصة للعالم الإسلامي، و بيئة خصبة لحركة التشافف الاجتماعي و الفكري، و ميداناً لحركة البيع و الشراء، و تبادل السلع و المنتجات بين مختلف أرجاء العالم الإسلامي، «ففي موسم الحج يتوفّر بمكة من أنواع السلع و الأمتعة و المصنوعات و المأكولات و المشروبات ما لا يتوفّر مثله في كثير من حواضر العالم و مدنه، من المصوغات و الحلبي إلى لعب الأطفال»^٣.

وهيّا انفتاح المجتمع المكّي على الآخر، طوال تلك القرون الماضية، تحول مكة المكرمة إلى سوق كبرى للمنتجات الاستهلاكية، في صورة قلّما تتكرّر في العالم القديم، و ذلك بسبب فريضة «الحج» التي جاءت استجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام فغدا هذا الوادي غير ذي الزرع مرايا للأطعمة و المشروبات و التّحف و الرياش! على ذلك التّحو الذي جعل ابن

١. رحلة ابن بطوطة، قدم له و حققه و وضع خرائطه و فهارسه عبد الهادي التازي، (الرباط: مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م)، ١ / ٣٠٧، ٣٠٨.

٢. سورة الحج : ٢٨ .

٣. رفيع، محمد عمر، مكة في القرن الرابع عشر الهجري، ط ١ (نادي مكة الثقافي، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م)، ص ١٨١.

بطوطة يسوق هذه المقولة المدهشة:

«ومكّة، شرفها الله، كما أخبر الله في كتابه العزيز حاكياً عن نبيه الخليل، بوادٍ غير
ذي زرع، و لكن سبقت لها الدعوة المباركة فكلّ طرفة تُجلب إليها، و ثمرات كلّ شيء
تُجبي لها.

و لقد أكلتُ بها من الفواكه العنب والتين والخوخ والرُّطب ما لا نظير له في الدنيا،
وكذلك البطيخ المجلوب إليها لا يماثله سواه طيباً وحلاوة. واللحوم بها سمان لذيزات الطعوم،
وكلّ ما يفترق في البلاد من السلع فيها اجتماعه..!»!



وللبحث صلة...